كتب

حبكة روائية لها جمهورها

مذاق الجريمة

نجم الدين خلف الله

الإعجاب بالجريمة شعور غامض، يُكنّه البعض تجاه المجرمين وفظاعاتهم فيصل إلى حدّ الانبهار والرغبة في التماهي معهم رغم أنهم «حُثالة المجتمع» وأشد إفرازاته توحشًا. هذا الإعجاب مفارقة حادة من مفارقات الإنسان الحديث، تتجلّى في العديد من الأفلام والمقالات والكتب التي تصدرُ، حتى لدى كبار المفكرين والأدباء، حول الجرائم الخَطرة التي تهزّ مجتمعاتنا المعاصرة للإبحار في نفسيات هؤلاء المنحرفين وعقلياتهم إلى درجة تكاد تجلب تعاطف القراء والمشاهدين فتُلين نحوهم القلوب. فهل نصدّق، مثلا، أنّ القاتل النرويجي أندريس بيهرينغ بريفيك، الذي أودى بحياة سبعة وسبعين بريئًا، يتلقى كل شهر ما يربو عن ثمانمئة رسالة حبّ وتقدير!

صوب هذه المفارقة الغريبة، يعود الأخَوَان ماثياس Mathias وإيمانيال رو Emmanuel Roux، أستاذان مُبرَّزان في الفلسفة، ضمن كتاب لهما صدر مؤخّرًا بعنوان: «مذاق الجريمة» Le Goût du crime (عن دار أكت سود) وهي محاولة فكرية تحلل أسباب هذا الشعور وتجلياته وذلك بالعودة إلى أخطر وجوه الإجرام في فرنسا خلال العصر الحديث وإلى ما أحيط بهؤلاء المنحرفين، مرتكبي الفظاعات، من إعجاب حدّ الأسْطَرَة، يتعارض مع ما يفترض أن يُكنّه لهم الناس من نفور واحتقار. يُذكّر الباحثان أنّ الجذور الأولى لهذا الكتاب تعود إلى أيام الطفولة عندما كانا يُرافقان أباهما المحامي إلى قاعات المحكمة ليشهدا المرافعات، وحينها اكتشفا أنّ الجريمة لصيقة بالمجتمع منفتحة عليه، كما لاحظا مدى انشداد «الجمهور» إلى الأعمال الوحشيّة التي تُرتكب في حق الأبرياء.

سعى الباحثان إلى تنظير هذا الشعور مُطلقين عليه مصطلحًا تقنيًا، ينحدر من الإغريقيّة: «hybristophilie» ويعني الإعجاب بمَن ارتكب اعتداءات على الغير. ويمكن ترجمته بـ«الانْهمام بالجريمة». وقد عَزَوا السّبب الأول لهذا الانهمام إلى كون الحوادث المتفرقة تهزّ الرتابة اليومية للمجتمعات وتكسر خطية الحياة الاعتيادية فيها. وقد ينشد المتابعون إلى ما في الجرائم من إتقان ولا سيما في عمليات السطو والسّرقات الاستعراضيّة التي تتميز بدهاء الأساليب المستخدمة وحنكة المجرمين الخارقة في اجتياز العراقيل الواحدَ تلو الآخر. وقد ذكرا دليلا على هذا الانبهار أمثلة من العلاقات العاطفيّة التي نشأت بين بعض المجرمين والعالَم الخارجي وصلت إلى الزواج، مثل حالة ميشال فورنيي (قاتل ومغتصِب فرنسي) الذي تزوج بمونيك، فصارت شريكته في الحياة... وفي الجريمة.

ولمزيد من إيضاح هذا المفهوم، أكبّ الأخَوَان على معالجة أهم القضايا التي هزّت المجتمع الفرنسي، مثل قتل الطفل غريغوري ولغز شيفالين وغيرها من القضايا. ويشمل مفهوم «القضية» في تحليلاتهما كلّ ما يتصل بها من إجراءات وتحقيقات وأسرار قد تكشفها الصّحافة أو المفتشون الخاصّون، إلى جانب الأخطاء القضائيّة وتواطؤ بعض الأطراف الخارجة عن الحقل القانوني مثل رجال الإعلام والسّاسة، مما يجعل من كل قضية حبكة روائيّة حقيقيّة بما في الكلمة من ثقل. ولعل البناء القصصي للقضايا هو ما يشدّ الانتباه ويثير الانبهار. ولذلك تشكل كلّ قضيّة وحدة سيميائيّة قائمةَ الذّات، تأسر المتابعين بخصائصها، مثل

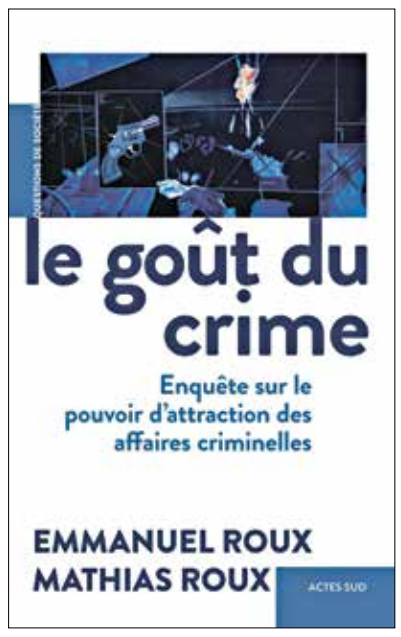

أية حبكة روائيّة يتفاعل معها الجمهور تعاطفًا ومتابعة فيظلّ يتعقب كل جديد يطرأ عليها، كما لو كان فيها أحد الأطراف المحرّكة لخيوطها. ولذلك وردت مادة الكتاب واقعيّة مُوَثّقة، استُمِدّت من معالجة أمهات القضايا الجنائيّة التي أربكت الناس فتابعتْها وسائلُ الإعلام وخاضت غمارها الجمعيّات وحتى أحزاب السياسة وقادتُها، إذ غالبا ما تنساق هذه الشرائح وراء القضايا وما تشهده من اهتزازات واختراقات. ويشكل هذا الإعجاب بدوره مؤشرًا عمّا يعتمل في حشايا المجتمع الفرنسي من توترات ومخاوف وعواطف، إذ لا تطفو قضيّة على الساحة على حساب أخرى، إلا بسبب ما تثيره في ذلك المجتمع إبان طور دقيق من أطواره، من انفعالات معينة، ولذلك لا يبدي المجتمع نفس الاهتمام بكل القضايا. كما استعاد الكاتبان كبارَ المفكّرين والأدباء والصحافيين الذين خصصوا أعمالاً، بعضها جماليّ، للمجرمين ومخالفاتهم حتى أوصلوها إلى حدّ «التعالي الفني» الذي يرتفع بالحدث الإجرامي من حضيض الشرّ إلى مستوى الأناقة والتفوق الذي يُبهر المتلقي، كما لو كان لوحة مرسومة أو قطعة أدب رائقة. واعتمدا بالخصوص أعمال رولانْ بارت وتحليلاته السيميولوجية وعلى «مواقف» جان-بول سارتر الفلسفية، ثم على توظيف رموز الجريمة في نصوص الكتاب الأدبية لتتغذى بما فيها من تشويق، كأنه ضربٌ من السحر. تقود هذه الظاهرة إلى سؤال: هل هذا الانهمام عامّ في كل المجتمعات الإنسانية أم إنه خاص بالمجتمع الفرنسي؟ الراجح أنه نزعة كونية تشمل كل المجتمعات المعاصرة المُعَوْلمة التي ترتفع فيها نِسَبُ الجريمة فتؤثر في التلقي الاجتماعي لها، ولا تبقيه بمنأى عنها، بل تؤثر فيها وتتأثر بها. وهو ما يُلاحظ فيما تثيره الجرائم في مجتمعاتنا العربية من أصداء ومتابعات واسعة، لاسيما بعد تغوّل وسائل التواصل الاجتماعي؛ وهو ما يستدعي ربما إنجاز دراسات نظرية لهذا التلقي ضبطًا لعوامله ووظائفه.

نعم ثمة فضولٌ طبيعي أقرّه علماء النفس والإناسة لدى البشر جميعا، شعور يدفعهم إلى معرفة خبايا السلوك الإجرامي بتفاصيله، لكن ينبغي ألا يتحول هذا الفضول الطبيعي إلى انهمام بالانحراف ولا أن يصير تعلقا بالمحظور، في اختلال واضح للموازين الكونيّة والقيم الاجتماعيّة المطلقة التي لا تقبل التنسيب، مثل فظاعة الاغتصاب والقتل العمد، كما أكّد العقاد في دراساته النفسيّة التي تظل مرجعيّة فلسفية في هذا الموضوع، والفظاعة لا يمكن تسويقها بأي خطاب، بالغًا ما بلغ من الفصاحة والجماليّة، كما أكّد ذلك تودوروف. وفي هذا الصدد، لا يسعنا إلا الإيماء إلى جرائم الاحتلال الإسرائيلي المقيتة وما ارتُكب ويُرتكب في سجونه من فظاعاتٍ بحق الأسرى فضلاً عن التقتيل المستمر منذ شهور، وهي جرائم لا يمكن أن تثير إلا الاشمئزاز والتقزز، لا الإعجاب والانبهار. ومن الضروري التساؤل، للمرة الألف، عن أسباب الصمت الغربي المريب حيالها، صمتٍ شارف المُباركة والإقرار، بل هو امتداد لنفس هذا الشعور الغامض الذي حلّله الأخَوَان رو: انهمام بجرائم يجعل من هذه البلدان شريكا فيها.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

مؤلفا الكتاب الأخَوَان ماثياس وايمانيال رو (أوليفييه ديون/ أكت سود)

صحبي كرعاني الحقيقة والحكاية

ابتداع ملحمة خاصّة

عباس بيضون

يوقّع الكاتب التونسي صحبي كرعاني مقدّمة روايته الأولى «دفاتر الجيلاني ولد حمد» (أطراس للنشر، 2023) بأحرف اسمه الأُولى (ص. ك)، فنشعر أنّه يوعز فيها بأنّ الرواية حقيقية. يجري ذلك على جداول بأسماء الشخصيات، ورسم جغرافي في عين حمد وجوارها. حقيقية الرواية ليست فقط جزءاً منها، لكنّ قراءتها تتردّد بين هذه الحقيقة ومرماها الروائي. لا نشكّ طبعاً في أنّها رواية أصلاً، بل إنّها في صفحاتها الأربعمئة لا تبدو رواية فقط، إذ إنّها أكثر من ذلك تبدو ملحمة شعبية. إنّها هكذا تغريبة مُعاصرة، إذا كان لنا أن نجد لها إرثاً روائياً يُعيدنا إلى الملاحم الشعبية.

للرواية من هذا الإرث الشعبي ذلك الخلط بين السلالات أو بين الأجيال، بذلك القصّ الذي يجري مجرى الأخبار المتواترة، والحكاية المتناقَلة جيلاً بعد جيل. لن نشكّ في أنّ ذلك قريبٌ من التراث الشفوي والمواريث العائلية، بل لا نشكّ في أنّ الراوي يصطنع لنفسه وظيفة الحكّاء، ويكاد يُدرج في الحكاية ما يحمل عناوين تاريخية، بل ما نعرفه تاريخاً. إنّنا هكذا الآن نرتاب في أنّ للمجسّم الجغرافي حقيقته الأكيدة، بل قد يتراءى لنا أنّ للأشخاص أنفسهم، الذين يردون في النص، بعضاً من الحقيقة، بل نحنُ أمام هذه الحقيقة وقد استحالت حكاية أو حكايات، بل إنّها متأسلبة على هذا النحو، إذ هي لا تزعم أنّها حقيقة، إلّا بقدر ما تحوي الحكاية من الحقيقة، أو ما يبقى من الحقيقة فيها بعد أن تغدو حكاية، أو حين تختار لنفسها هذا الأسلوب، وتُقدّمه على أنّه نحوها في استظهار الحقيقة على أنّه حقيقتها الخاصّة.

الجيلاني هو الراوي، لكنّه ليس الرواية، بل نحن نشعر أنّ الرواية تبدأ به انفصالها، بل تحوُّلها إلى تاريخ. لا نفهم، إلّا على طريقة الرواية وغرارها، كيف اعتُقل الجيلاني، وبتهمة قد تجعله غريباً: النازية، التي لا نجد أيّة مقدّمات لها في الرواية، بل لا نفهم كيف نُسبت إليه، وكيف قامت على محض حكاية عارضة. لكن سجن الجيلاني بتهمة كهذه هو بدء تحوُّل الحكاية إلى تاريخ، لكن

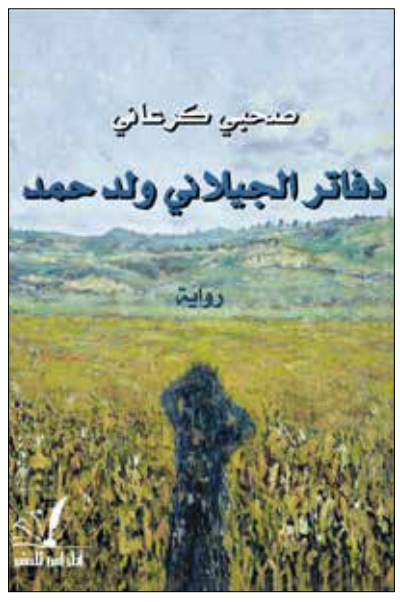

نجد في النصّ إرثاً روائياً يُعيدنا إلى الملاحم الشعبية

التاريخ نفسه لن يكون هكذا سوى حكاية، تردّنا إلى اعتبار الديك الواقف فوق الكون الدارج على السيل، رمزاً لبورقيبة.

إنّها الحكاية تتكلّم، والحكاية تُستعاد، حتى حين تكون على شفا التاريخ، أو حين تُحوّله لها جاعلةً منه أسلوبها. هكذا ننتقل مع الجيلاني الحفيد في الرواية، من الرعي والبداوة إلى الاستعمار الفرنسي وقيام حُكم بورقيبة وتعاضداته. التاريخ هكذا لا يكون أكثر من عناوين، النازية والاستعمار والتعاضديات والسجن الباريسي، الذي هرب منه الجيلاني بأسبوعين قبل انتهاء فترة سجنه، والأوراق التي سقطت منه على طريق الهروب، بعد أن كان أمضى سنوات في تحريرها. كلُّ هذا ليس من التاريخ، ولو أنّه يحمل عناوينه. إنّه عند ذلك التاريخ وقد تعنون، لكنّه مع ذلك، ليس سواه. الجيلاني بتهمة النازية، لأنّه روى أحدوثة الجندي الألماني الهارب الذي أحسن للعجوز وقدّم لها ما تأكله. لا نزال هنا في الحكاية، بل إنّ الجيلاني يرويها في المحكمة التي لا يستطيع فيها أن يخرج عن طوره، أن يعود الحكّاء الذي كانه على طول الرواية. يمكننا القول مع ذلك إنّ كرعاني وجد أسلوبه وروايته هكذا. هذا الأسلوب هو اختراعه، ولو أنّه يندرج في عنوان الحكاية. يبقى مع ذلك ابتداعه. إنّ متعة القصّ هي هنا في هذه المواربة بين الخبر والحكاية، بين التاريخ والحكاية. هكذا نقرأ الرواية على طول صفحاتها الأربعمئة، بهذا الشوق الذي يتوالد من ذلك التحوّل، من التردّد بين الحكاية والحقيقة، بل هذا الانزياح الذي يصل إلى أن يكون أسلوباً بذاته. من الخبر إلى الحكاية، من الواقع إلى مقابله الحكائي. إنّنا نجد ملحمة شعبية هكذا، لوناً آخر من ملحمة، ابتداع ملحمة خاصّة.

(شاعر وروائي من لبنان)

نظرة أولى

ضمن سلسلة «تاريخ المصريّين»، صدر عن «الهيئة المصرية العامّة للكتاب» كتاب **فقراء مدينة القاهرة في النصف الأوّل من القرن العشرين** (1907 - 1952)، للأكاديمية المصرية نسمة سيف الإسلام سعد، بتقديم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر إسماعيل محمد زين الدين، والذي يُشير، في التقديم، إلى أنّ أهمية دراسة أوضاع الفقراء في القاهرة تكمن في دورهم الحيوي في الحراك المجتمعي وتأثيرهم على مختلف جوانب المجتمع المصري. يضيء العمل على كيفية تعامُل السلطات الحكومية مع هذه الأوضاع، وردود الفعل الشعبية تجاه تفاقم مشكلة الفقر في ظلّ الأزمات الداخلية والخارجية المتعاقِبة.

إسماعيل كاداريه: مجاوَرة الدكتاتورية والعالمية، مقاربات في الأصل والواقع المترجَم، عنوان كتاب للكاتب والباحث الكوسوفي السوري محمد م. الأرناؤوط، يصدر قريباً عن «دار مرفأ». نقرأ في المقدّمة: «يمكن لقارئ هذا الكتاب، ببساطة، استيضاح العلاقة بين الدكتاتورية وبين العالمية: كيف يمكن لروائي مثل كاداريه أن يتصدّر المشهد الروائي والمسرح السياسي لنظام دكتاتوري يدعم ويموّل ترجمة أعماله إلى لغات العالم باعتبارها تروّج لألبانيا الخوجوية في العالم، ثم يُعاد تفسيرها بعد سقوط الدكتاتورية باعتبارها كانت موجهة ضد الدكتاتورية؟».

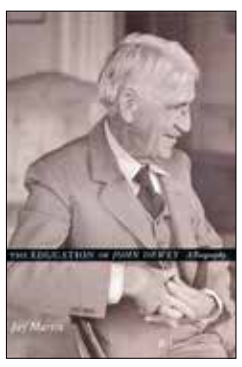

تعليم جون ديوي.. سيرة ذاتية، عنوان كتاب صدر عن «منشورات جامعة كولومبيا» للكاتبة جاي مارتن. تعود المؤلفة إلى طفولة الفيلسوف والتربوي الأميركي (1859 - 1952)، وتأثيرها على حياته، وصولاً إلى تنظيراته حول «مدرسة المختبر» التي انتشر نموذجُها في مختلف أنحاء العالم، ومفهومه للتعدّدية الثقافية والتفكير المستقلّ والمجتمع الديمقراطي التي كان ينظر إليها بوصفها الأساس لتطوّر العملية التعليمية التي تُعدّ انعكاساً لاتحاد الروح الفردية والجماعية، كما امتدّت دراساته وآراؤه لتشمل مجالات أُخرى مثل السياسة والدين وعلم الجمال.

عن «مدى الكرمل/ المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقيّة»، صدر كتاب **هبّة في حالة عتبة: هبّة الكرامة (أيّار 2021) والفعل الانتفاضي - الشعبي لدى فلسطينيّي 1948 - مقاربة سوسيولوجية**، للباحث الفلسطيني خالد عنبتاوي. يدرس الكتاب الهبّة التي اندلعت في أيّار/ مايو 2021 كردّة فعل على اقتحامات المستوطنين للأقصى، رفضاً لمحاولات تهجير واقتلاع أهالي حيّ الشيخ جرّاح، وما تبع ذاك من عدوان إسرائيلي على غزّة، في محاولة لاستيعاب التحوّلات الاجتماعية والثقافية العميقة التي جرت داخل المجتمع الفلسطيني في الأراضي المحتلّة عام 1948.

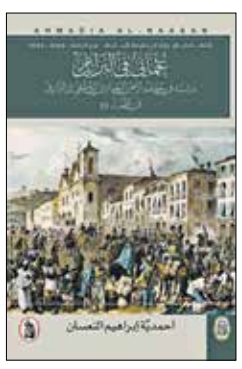

بتحقيق الباحثة السورية أحمدية إبراهيم النعسان، صدر عن «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر» كتاب **عثماني في البرازيل: دراسة في رحلة عبد الرحمن البغدادي الدمشقي إلى البرازيل في القرن 19**. يدرس العمل ويوثّق يوميات الرحّالة عبد الرحمن بن عبد الله البغدادي الدمشقي الذي أبحر ما بين آسيا وأميركا على متن سفينة تنتمي إلى الأسطول البحري العثماني، ووصل إلى ميناء ريو دي جانيرو عام 1866، وأمضى في البرازيل قرابة ثلاث سنوات، ليعود إلى إسطنبول مروراً بإسبانيا سنة 1871 ، ويدوّن رحلته تحت عنوان «مسلّية الغريب في كلّ أمر عجيب».

يتناول كتاب **الحقيقة والخيال** لـ برتراند رسل، الصادر عن «دار التكوين» بترجمة باسل المسالمة، مجموعة من مقالات الفيلسوف والمؤرّخ وعالم المنطق والرياضيات، حيث يعرض القسم الأوّل الكتب التي أثّرت فيه في شبابه، ويبحث الثاني في أنواع الحريات ومستقبلها، ومنها الحريات الوطنية والسياسية والفكرية، ويقدّم الثالث شكلاً من أشكال الترفية المستطرد من خلال الحديث عن الكوابيس والأحلام والأمثال والقصص الخرافية. أمّا القسم الرابع، فيتكوّن من مقالات حول الحرب والسلام وخطابات حول العلاقات الدولية ومنع الانتشار النووي.

من أين جاء مفهوم الثالوث عند الكائن البشري؟ وكيف تطوّر؟ وما دواعي ومسوّغات استمرار وجوده كمرتكز أساسي في كلّ أشكال معتقداته اللاهوتية، وفي أنماط تفكيره وتأمّلاته وأحلامه الخيالية والواقعية، عبر كلّ مراحل تطوّره التاريخية؟ ولماذا ظلّ خاضعاً له، ولا يزال إلى اليوم واقعاً تحت تأثيرات هذا المفهوم، على الرغم من كلّ ما حقّقه وما أنجزه هذا الكائن من نتائج مهمّة على صعيد نهجه العلمي الحديث؟ يجيب كتاب **مفهوم الثالوث عند الكائن البشري** للباحث أمين كبيبو، والصادر عن «دار نينوى»، عن هذه الأسئلة وغيرها.

عن «المركز القومي للترجمة» تصدر هذه الأيام النسخة العربية من كتاب **شعرية ما بعد الحداثة: التاريخ، النظرية، المتخيّل**، للناقدة الكندية ليندا هاتشون، بتوقيع السيّد إمام (1945 - 2023). يبحث الكتاب في نقاط التداخُل بين النظرية والممارسة الجمالية التي يمكن أن تقود إلى ما يُطلَق عليه شعرية ما بعد الحداثة. يتناول القسم الأوّل تاريخ ما بعد الحداثة في علاقتها بالحداثة وحقبة الستينيات ونموذجها البنيوي المستمَدّ من فنّ العمارة وعلاقتها بالخطابات الهامشية اللامركزية، والثاني مفهومَ الميتا-رواية التأريخية والمواجهة بين التاريخ والميتا-رواية.